الفكر الاجتماعي عند مالك بن نبي- قراءة سوسيو- مفاهيمية في كتاب ميلاد مجتمع-
Malik bennabi's Social thought
Socio - Conceptual Reading in the Book of Society's Birth.

تاريخ الاستلام: 2019/11/13 تاريخ القبول: 2019/12/22 تاريخ النشر: 2019/12/31

د.زكيـــة العمـــراوي
جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي
Email : Lamraoui.zakia@univ-oeb.dz

الملـــخص

يعتبر المفكر والفيلسوف مالك بن نبي أحد أعلام الفكر العربي والإسلامي المعاصر. تمحورت كتاباته حول فهم الإنسان ومحاولة بنائه من أجل النهوض بالمجتمعات وتحضرها. كان ينشد إيجاد حلول للأمراض الاجتماعية التي أصابت الجزائر خاصة والأمة الإسلامية عامة. وكان يرى أن أهم مشكلات المجتمع الإسلامي هو تدهور شبكة العلاقات الاجتماعية فيه، مما جعله ضعيفا ومريضا قابلا للاستعمار. ويعد كتاب "ميلاد مجتمع" أحد أهم مؤلفاته، والذي حاول من خلاله فهم مشكلات عصره من خلال مناقشة العديد من المصطلحات السوسيولوجية مثل المجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، الثروة الاجتماعية، المرض الاجتماعي، كما ناقش فكرة التربية الاجتماعية وغيرها من الأفكار السوسيولوجية. وسنحاول من خلال هذا المقال أن نعرض أهم المصطلحات السوسيولوجية من خلال قراءة سوسيو-مفاهيمية لمؤلفه "ميلاد مجتمع".

الكلمات المفتاحية: المجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، الثروة الاجتماعية، المرض الاجتماعي، التربية الاجتماعية.

Abstract

Malik Bennabi is an eminent Algerian thinker and philosopher in the contemporary Arab and Islamic thought. His writings centered on understanding Man and trying to build him in order to promote and civilize societies. He sought solutions to the social diseases that plagued Algeria in particular and the Muslim nation in general. He believed that the most important problems of the Islamic society is the deterioration of the social relations network, which made him weak, sick, and prone to be colonized. One of his most important works is 'Society's Birth', in which he tried to understand the problems of his time by discussing many sociological terms such as society, social relations network, social wealth, social illness, and the idea of social education and other sociological ideas. In this research paper, we will attempt to present the most important sociological terms by Socio-Conceptual reading of the book of Society's Birth.

Keywords: *society, social relations network, social wealth, social illness- social education*

[1] المرسل المؤلف: د. زكية العمراوي، Lamraoui.zakia@univ-oeb.dz

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 9/ العدد 19 – السنة 2019 ص ص 75–90
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8152

مقدمة

لقد اهتم مالك بن نبي بدراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية والفلسفة بالإضافة إلى تخصصه العلمي في مجال الهندسة الكهربائية الشيء الذي منح تحليلاته صبغة خاصة. وكان اهتمامه منصبا على فهم الإنسان وبنائه من أجل النهوض بالمجتمعات وتحضرها، فجاء انتاجه المعرفي غزيرا من حيث العدد والقيمة المعرفية.

وفي دراسة المجتمع الإنساني والعمران البشري والبحث في القوانين التي تحكم التغير الاجتماعي تأثر مالك بن نبي بابن خلدون، فقد تبنى المنظور الخلدوني وارتفع به من مستوى الدولة إلى مستوى الحضارة. ولهذا جاءت أفكاره منصبة حول البحث في مشكلة الحضارة في العالم الإسلامي، ومحاولة إيجاد حل متكامل لها من أجل النهوض الحضاري.

وفي سبيل تحقيق ذلك قدم مالك بن نبي مشروعا فكريا حضاريا تربويا تنمويا حاول من خلاله تفسير مختلف المشكلات التي تمر بها المجتمعات أثناء تشكلها وأثناء انتقالها من مرحلة إلى أخرى عبر نسيج من العلاقات الاجتماعية. فهو مشروع متكامل يركز بالدرجة الأولى على علاج الأمراض التي تصيب المجتمعات.

وستحاول الباحثة من خلال هذه المساهمة العلمية تسليط الضوء على الاهتمامات السوسيولوجية لمالك بن نبي وتقديم قراءة مفاهيمية لبعض المفاهيم السوسيولوجية الواردة في كتاب 'ميلاد مجتمع'، هذا الأخير الذي يعتبر ثروة في المصطلحات والأفكار السوسيولوجية التي قدمها مالك بن نبي في سبيل 'ميلاد' مجتمع، وذلك انطلاقا من التساؤلات التالية:

- ما هي اهتمامات مالك بن نبي السوسيولوجية؟

- ماذا يقصد مالك بن نبي ب'ميلاد ' مجتمع؟
- ما هي طبيعة العلاقات الاجتماعية في فكر مالك بن نبي، وما هي شروط بناء تلك العلاقات؟
- ماهي الثورة الاجتماعية الحقيقة لدى مالك بن نبي؟
- ما هو المرض الاجتماعي؟ وماذا يقترح بن نبي كحلول لهذه الأمراض الاجتماعية؟
- ما مضمون فكرة التربية الاجتماعية لمالك بن نبي؟

1- اهتمامات مالك بن نبي السوسيولوجية:

تأثر مالك بن بني بابن خلدون في تركيزه على دراسة المجتمع الانساني والعمران البشري، والبحث في السنن التي تحكم حركة التبدل والتغير والتداول في التاريخ. ويرى بن نبي أن ابن خلدون من خلال دراسته للمجتمعات في زمانه اكتشف قانون حركة التاريخ والدورة التاريخية، وتوصل إلى رصد المراحل المتعاقبة التي يمر بها العمران البشري والاجتماع الإنساني، وأعمار الدول، وصاغها في أدوات تحليل اجتماعي مهمة جدا، مثل العمران البدوي والعمران الحضري، ومراحل الغلبة والتمكين والتحضر والترف ثم التفكك، وحدد خصائص كل مرحلة نفسيا وفكريا واجتماعيا (بن لحسن، 2017).

ولعلنا، نرى في هذا السياق أن مالك بن نبي، بالرغم من تبنيه للمنظور الخلدوني والإرث الخلدوني، المنصب على دراسة الشروط الموضوعية والسنن التاريخية لحركة التبدل في العمران البشري، فإنه ارتفع بالتراث الخلدوني من دراسة (الدولة) باعتبارها وحدة التحليل، إلى دراسة (الحضارة) باعتبارها وحدة التحليل. وهو بهذا انتقل بالمنظور الخلدوني إلى أفق كلي عالمي؛ أي إلى مستوى الأحداث

الإنسانية، لاكتشاف السنن والشروط التي تولد فيها الحضارات وتتحكم في سيرورتها وصيرورتها (بن لحسن، 2017).

يتميز فكر مالك بن نبي بالشمولية، وتكمن عناصر قوة النظرية الاجتماعية عنده في تماسك وترابط مفاهيمها. هذه المفاهيم تشكل نسقا متكاملا إذ لا يمكن وبخاصة على المستوى المعرفي فصل مفهوم عن المفاهيم الأخرى، فإن تحدثنا مثلا عن الحضارة فهذا يدفعنا للبحث عن مفهوم الإنسان ومفهوم التراب ومفهوم الزمن ومفهوم المركب الديني، وإذا بحثنا في مشكلة الثقافة يكون لزاما تحديد مفهوم شبكة العلاقات الاجتماعية، وهذا المفهوم بدوره يتشكل من مفاهيم مترابطة ومتداخلة مع بعضها البعض وهي: عالم الأشخاص ، وعالم الأفكار وعالم الأشياء، وإن أردنا الكشف عن النظام التربوي أو شروط فعالية الثقافة فإن ذلك يتطلب منا تحديد مفهوم المبدأ الأخلاقي، والمبدأ الجمالي والمنطق العملي والعلم (الصناعة) في تركيب منظم يحترم فيه هذا الترتيب وهذا التوجيه. هذه المفاهيم تعبر في الحقيقة عن أدوات معرفية قد وظفها مالك بن نبي لتشخيص ظاهرة التخلف في العالم الإسلامي وللإسهام في عملية إعادة البناء الحضاري، إن هذه المفاهيم تمثل نظرية في التغيير الاجتماعي (كبار،2001/ 2002، 35، 36).

2- بعض المفاهيم السوسيولوجية عند مالك بن نبي:

يقول مالك بن نبي: " لم تبلغ العلوم الإنسانية بعد درجة تحديد مصطلحاتها عامة، كما حدث للعلوم الطبيعية، فإن في علم الاجتماع بعض المفاهيم التي تبدو أحيانا غير محددة في ذهن القارئ في البلاد الإسلامية، حيث نجد أن اللغات المحلية لما تتمثل تماما المصطلحات الحديثة" (بن نبي، 2006، 9).

وسنحاول هنا عرض أهم المصطلحات السوسيولوجية الواردة في كتاب "ميلاد مجتمع".

1. المجتمع:

يرى مالك بني ضرورة تجاوز التحديد الخارجي الوصفي في تعريف "المجتمع" لأنه لا يعطي أي تفسير للوظيفة التاريخية له، ويؤكد على أن الوظيفة التاريخية تتحكم في كل تغير يطرأ على العناصر المشكلة لجماعة ما أو لثقافتها، حيث يقول: "كل جماعة لا تتطور، ولا يعتريها تغيير في حدود الزمن، تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة 'مجتمع' " (بن نبي، 2006، 16). ويطلق مالك بن نبي على النقطة التي تتطور ابتداء منها جماعة إنسانية معينة لفظ "ميلاد"، ويعرفه ضمنا بوصفه: "حدثا يسجل ظهور شكل من أشكال الحياة المشتركة، كما يسجل نقطة انطلاق لحركة التغيير التي تتعرض لها الحياة. ويظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين أفراد جماعة معينة" (بن نبي، 2006، 16).

وفي مستهل دراسته لتنوع الظواهر الاجتماعية التي تنطبق عليها لفظة 'مجتمع'، فرق مالك بن نبي بين نموذجين للمجتمع:

- **نموذج المجتمع الساكن:** ويمثله المجتمع الطبيعي أو البدائي الذي ظل محافظا على معالم ثابتة له لا تسمح بالتجديد في شخصيته، "كالمجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل أو النحل. والقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار، والقبيلة العربية في العصر الجاهلي" (بن نبي، 2006، 9).
- **نموذج المجتمع المتحرك:** ويمثله المجتمع التاريخي الذي لم يحافظ على المعالم الأولية له، بل خضع لقوانين التطور التي غيرت من صفاته الجذرية." فهو المجتمع الذي يخضع لقانون التغيير الذي يعدل معالمه من جذورها" (بن نبي،

2006، 10). وقد أعطى بن نبي أمثلة عن المجتمعات التاريخية، منها المجتمع الأمريكي الذي نشأ نتيجة للهجرة من المجتمع الأوربي المتحضر.

ويعرف مالك بن نبي المجتمع على أنه:" الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير"(بن نبي، 2006، 17). وبعد مقارنته بين المواد في الكيمياء والأفراد في المجتمع، على أساس أن مجموعة الذرات ليست مجرد كمية من المادة، بل هي تنظيم هذه المادة طبقا لنظام معين، توصل مالك بن نبي إلى أن: "المجتمع ليس مجرد مجموعة من الأفراد، بل هو تنظيم معين ذو طابع إنساني يتم طبقا لنظام معين" (بن نبي، 2006، 17).

ويقوم هذا النظام على ثلاثة عناصر:

- حركة يتسم بها المجموع الإنساني
- وانتاج لأسباب هذه الحركة
- وتحديد لاتجاهها (بن نبي، 2006، 17)

وتتطابق فكرة الحركة مع مفهوم التغير والتطور وتعد عنصرا جوهريا في التعريف في علم الاجتماع. ففكرة الحركة التي تساعد على التفرقة بين 'المجتمع' وبين سائر أشكال الجماعات الإنسانية، تعني في علم الاجتماع فكرة ذات قيمتين: "فتطور الجماعة يؤدي بها إما إلى شكل راق من أشكال الحياة الاجتماعية، وإما يسوقها على عكس ذلك إلى وضع متخلف"(بن نبي، 2006، 18).

2. العلاقات الاجتماعية:

يرى مالك بن نبي أن صناعة التاريخ تمر عبر ثلاثة عوالم: عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء. غير أن العمل التاريخي لا يمكن أن يصنع فقط بوجود هذه العوالم الثلاثة وإنما "يستلزم كنتيجة منطقية وجود عالم رابع، هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية أو ما نطلق عليه 'شبكة العلاقات الاجتماعية'"(بن نبي، 2006، 27). فالفرد الذي تقوم عليه الحضارة لا ينبغي أن يكون فردانيا في تفكيره وفي تكوينه وفلسفته وإنما يجب أن يدرك تمام الإدراك أنه ضمن نسيج اجتماعي قائم على التكامل والتفاعل والانتاج " (ضيف الله، 2005، 79).

ولا تكتمل الوظيفة التاريخية لأي مجتمع دون اكتمال شبكة العلاقات الاجتماعية داخله لأن هذه الشبكة هي النقطة الأولى التي ينطلق منها المجتمع نحو الحركة والتغير، وفي هذا الصدد يقول بن نبي: "إن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده"(بن نبي، 2006، 27). ويستشهد في ذلك بالعالم الاسلامي الذي كان ميلاده نتيجة الميثاق الذي ربط الأنصار والمهاجرين، واعتبرت بذلك الهجرة بمثابة نقطة بداية التاريخ الإسلامي.

ويبدأ التغيير الاجتماعي عندما ينشئ الفرد شبكة علاقات اجتماعية تربطه بباقي أفراد المجتمع، أي عندما يكتسب الفرد صفة "الاجتماعي"، حيث يقول مالك بن نبي: "إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه 'فردا' إلى أن يصبح 'شخصا'، وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع" (بن نبي، 2006، 31).

لقد أولى مالك بن نبي أهمية قصوى للعلاقات الاجتماعية وما يمكن أن تؤديه في سبيل الحركة التاريخية لمجتمع ما، حيث يرى في هذا الصدد أن:" التغيرات

التي تتم في الحياة الاجتماعية لا يصح أن تعزى ابتداء إلى 'المادة الاجتماعية' أعني: الاقتصاد وكل ما يتصل بالعمل الحسي، وإنما تعزى إلى 'العلاقات' التي تحول الشروط السابقة للظاهرة الاقتصادية ذاتها، حين توحد عناصرها في خلق حياة إنسانية منظمة، من أجل الاضطلاع ببعض الوظائف الاجتماعية، في نطاق 'العمل المشترك' الذي يصنع التاريخ" (بن نبي، 2006، 36).

3. الثروة الاجتماعية:

يرى مالك بن نبي أن الثروة الحقيقية لأي مجتمع تكمن في عالم الأفكار؛ فإذا فقدها فقد كل مقوماته، ويقول في هذا الصدد:" لا يقاس غنى مجتمع بكمية ما يملك من ' أشياء'، بل بمقدار ما فيه من أفكار" (بن نبي، 2006، 37). لأن عالم الأشياء يمكن إعادة بنائه واستشهد هنا بالظروف التي مرت بها ألمانيا وروسيا إبان الحرب العالمية الثانية، حيث الحرب دمرت عالم الأشياء فيهما. ولكن بفضل رصيدهما من الأفكار استطاعت الدولتان إعادة بناء كل شيء. "والأفكار ليست منفصلة عن عالم الأشخاص على طريقة مثل أفلاطون، بل إن ملحمتها جري كلها على الأرض، حتى لا يمكننا – مهما تحرينا من التجريد-أن نفصل مغامرة فكرة عن مغامرة صاحبها فصلا تاما" (بن نبي، 2000، 133).

وفي موضوع الثروة الاجتماعية، يعيد مالك بن نبي التأكيد على أهمية العلاقات الاجتماعية، حيث يقول: " فاعلية الأفكار تخضع إذن لشبكة العلاقات، أي أننا لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كلما كان العمل فعالا مؤثرا" (بن نبي، 2006، 38). فثروة مجتمع ما تقاس بمدى كمية الأفكار فيه من جهة وبمدى أهمية شبكات العلاقات الاجتماعية داخله من جهة أخرى.

4. المرض الاجتماعي

يرى مالك بن نبي أن تطور المجتمع يستوجب قوة شبكة العلاقات الاجتماعية وأي ضعف في هذه الشبكة يؤدي إلى إصابة المجتمع بالأمراض وهذا ما يؤدي بدوره إلى هلاك هذا المجتمع حتى وإن كان يملك كل الموارد المتعلقة بالأشخاص والأفكار والأشياء، حيث يقول في هذا الصدد: " إذا ما تطور مجتمع ما على أية صورة، فإن هذا التطور مسجل كما وكيفا في شبكة علاقاته، وعندما يرتخي التوتر في خيوط الشبكة، فتصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعالة، لذلك أمارة على أن المجتمع مريض، وأنه ماض إلى نهايته. أما إذا تفككت الشبكة نهائيا، فذلك إيذان بهلاك المجتمع، وحينئذ لا يبقى منه إلا ذكرى مدفونة في كتب التاريخ" (بن نبي، 2006، 42).

فمن بين أهم الأسباب التي تؤدي الى نهاية المجتمعات برأي مالك بن نبي هو حدوث تضخم في 'الأنا' عند الفرد مما يؤدي إلى اختفاء 'الشخص' وظهور 'الفرد'، فيصعب عليه العمل الجماعي فينفصل فعليا عن شبكة علاقاته الاجتماعية وهذا ما يسبب ضمور شبكة العلاقات الاجتماعية حيث يؤكد ذلك بقوله: "فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين" (بن نبي، 2006، 43). فالعلاقات الاجتماعية الفاسدة - كما يسميها مالك بن نبي- في عالم الأشخاص تؤثر في عالم الأفكار وعالم الأشياء.

يرى مالك بن نبي أن تضخم 'الأنا' في مجتمع ما يؤدي إلى عدم فاعلية شبكة علاقاته الاجتماعية، ما يسبب أمراض في مختلف جوانبه الاقتصادية

والسياسية والفنية... كما يرى أن علاج هذه الأمراض يكمن في علاج أمراض 'الأنا' في هذا المجتمع بالذات، حيث يستشهد بفشل بعض الساسة في بعض البلدان الإفريقية الآسيوية في تطبيق حلول فنية مستوردة من أوروبا، لأن هذه الحلول لا تتفق مع خصوصية 'الأنا' في هذه البلدان. فيقول في هذا الشأن: " فالحلول الفنية ينبغي إذن أن تتكيف مع نفسية البلد الذي تطبق فيه ومع مرحلة تطوره، كما أن 'الأنا' ينبغي أن تتكيف طبقا للحلول الفنية التي يحاول تطبيقها" (بن نبي، 2006، 45).

ويضيف مالك بن نبي قائلا بأن 'اضطراب' العلاقات الاجتماعية يؤدي إلى 'سقوط اجتماعي' في عالم الأفكار، وقد استشهد هنا بالتراث الفكري لابن خلدون الذي يقول فيه بأنه: "ظل حروفا ميتة في المجتمع الإسلامي حتى نهاية القرن التاسع العشر" (بن نبي، 2006، 47). وهنا يرى بن نبي أن "الإنقاص من عدم فعالية الفرد، يعني الإنقاص من تخلف المجتمع" (بن نبي، 2000 أ، 71).

لقد استخدم مالك بن نبي مصطلح المرض بدل مطلح الضعف ليصف العالم الإسلامي، وهو يرى بأن "هناك غياب للمفاهيم والأفكار في حس المسلمين، وخاصة العلاقة التي تنظم بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، حيث تبقى الفكرة معزولة ومحايدة وبالتالي فقدانها لفعاليتها، فإن الفكر في المجتمع الإسلامي المعاصر يتسم بانعدام الفعالية، كما يتسم الفقر حتى في الأفكار نفسها، في الوقت الذي تمثل فيه الأفكار الثروة الوحيدة التي يعول عليها" (العقبي، 2005، 181). فالفكرة هي المبدأ الأساسي للحركة والحياة فهي تمارس طاقتها الخفية في الضمائر والتي هي الروح في بنية المجتمع (بن عيسى، 207، 35). لكن عندما يكون المجتمع متخلفا " قد يصل الأمر إلى طغيان عالم الأفكار؛ فعندما لا يستطيع المسلم القيام بعمل مثمر يلجأ إلى البحث في الأفكار المجردة النظرية التي لا تأخذ طريقها إلى التطبيق، وبدل

أن يتكلم عن معاناة الناس ومشاكلهم والتخطيط لمجتمع أفضل، فهو يتكلم عن الماضي الذي له صلة بالحاضر" (العبدة،2006 ، 90). "فالمجتمع المتخلف ليس موسوما حتما بنقص في الوسائل المادية 'الأشياء'، وإنما بافتقار للأفكار، يتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه؛ بقدر متفاوت من الفاعلية، وفي عجزه عن إيجاد غيرها، وعلى الأخص في أسلوبه في طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق؛ عندما يتخلى عن أي رغبة ولو مترددة بالتصدي لها (بن نبي، 2006 أ، 36).

3- فكرة التربية الاجتماعية عند مالك بن نبي:

لقد حاول مالك بن نبي من خلال كتابه 'ميلاد مجتمع' أن يتوصل إلى وضع منهج يهدي سير مجتمع ما. وهو يرى أن قواعد هذا المنهج يجب أن تستقى من علم التاريخ، علم الاجتماع وعلم النفس، كما يجب الأخذ في عين الاعتبار نطاق النفس الإنسانية من جهة، ونطاق الزمن الاجتماعي من جهة أخرى." إن مشكلة التاريخ يمكن أن تتصور بطريقتين، فإما أن نحلها في نفس الفرد ذاته، ناظرين إلى ما يغير ذاته الإنسانية، وإما أن نحلها في نطاق ما يحيط به، ناظرين إلى ما يغير إطاره الاجتماعي" (بن نبي، 2006، 75).

ويرى مالك بن نبي أن فكرة التربية الاجتماعية يجب أن تنطلق من فكرة أنه: "لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، وفي سلوك نموذجه الذي يتكون منه، وبعبارة أخرى: لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة، عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية، في مستوى الفرد، ومستوى المجتمع"(بن نبي، 2006، 78).

ولقد استنبط مالك بن نبي من القرآن الكريم فكرة أن كل ما يغير النفس يغير المجتمع، حيث يقول أن: "الفكرة الدينية تحدث تغييرها حتى في سمات الفرد ومظاهره، حين تغير في نفسه، وبذلك يكون لمنهج التربية الاجتماعية أثره في تجميل

ملامح الفرد، أي إن مجموعة من الانعكاسات تؤدي إلى خلق صورة جديدة، كأنها تتمثل في وجه جديد" (بن نبي، 2006، 80).

إن أهم أسس التربية الاجتماعية هو ضرورة تغيير الصفات الفردية للفرد وتحويلها إلى صفات اجتماعية للشخص، أي التحول من النزعة الفردية المحكومة بالغرائز إلى النزعة الاجتماعية الناتجة عن تكيف الشخص. وتملك شبكة العلاقات الاجتماعية القدرة على توحيد طاقات الأفراد في صورة نشاط مشترك لمجتمع ما.

لقد وضع مالك بن نبي ثلاث مراحل يتغير من خلالها المجتمع:

المرحلة الأولى (الروح): والتي يمكن أن تفسر بطريقتين، تفسر أولا بلغة علم الاجتماع حين نقول: إنها تتفق مع شبكة العلاقات الاجتماعية حين تكون في أكثف حالاتها، لا في أكثرها امتدادا، هذه الكثافة التي تعبر عن قوة ومتانة هذه الشبكة. كما يمكننا أيضا أن نفسر هذه المرحلة بلغة علم النفس حين نقول: إنها تتفق مع المرحلة التي يكون الفرد خلالها في أحسن ظروفه، أي الظروف التي يكون فيها نظام أفعاله المنعكسة في أقصى فاعليته الاجتماعية، وتكون طاقته الحيوية أيضا في أتم حالات تنظيمها. وتعتبر هذه المرحلة الديناميكية هي العصر الذهبي لأي مجتمع، أين يبلغ أوج ازدهاره.

ففي هذه المرحلة لا يزال عالم الأفكار جنينيا، أما عالم الأشخاص فإنه يتبدل بصورة أساسية وتكون شبكة العلاقات الاجتماعية في أكثف حالاتها، بينما لا يزال عالم الأشياء بسيطا لكنه يطوع لأداء مهمات المجتمع الجسمية (سعود، 2006، 123).

المرحلة الثانية (العقل): أين يكون المجتمع يتمتع بشبكة علاقاته الاجتماعية حين تكون في أكثر حالاتها سعة وامتدادا، ولكن حين تكون أيضا بعض الشوائب قد طفت على وجهه وبعض النقائص قد برزت في صورته. ومعنى هذا بلغة علم النفس أن نظام الأفعال المنعكسة للفرد قد تعرض لصدمة، تعرضا لم يعد الفرد

يتصرف في كل طاقاته الحيوية، وهو يباشر وظيفته الاجتماعية، أي أن جانبا من غرائزه لم يعد تحت رقابة نظام أفعاله المنعكسة. وفي هذه المرحلة يواصل المجتمع نموه ولكن جانب من طاقته يكون قد مضى إلى السكون.

لو نظرنا إلى المجتمع في هذه المرحلة من زاوية عوالمه الأربعة وجدنا عالم أفكاره قد نما واتسع بشكل لافت للانتباه، كما أن عالم أشيائه قد تضخم هو الآخر. أما شبكة العلاقات فإنها تكون في أكثر حالاتها سعة وامتدادا ولكن قد بدأت تبرز عليها بعض الشوائب (سعود، 2006، 125).

المرحلة الثالثة (الغريزة): حيث أن كل فرد يصبح يعمل لحسابه الخاص وهنا يختل نظام الطاقة الحيوية ويفقد قيمته الاجتماعية حين يهرب من مراقبة نظام الأفعال المنعكسة الناشئ عن عملية التكيف. وبذلك تسود الفردية وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية نهائيا: وهو ما يطلق عليه في التاريخ عصر الانحطاط الذي يؤدي إلى القابلية للاستعمار.

إن تاريخ مجتمع ما- في رأي مالك بن نبي- هو تاريخ شبكة علاقات ونظام الأفعال المنعكسة لدى نموذجه، وهو الفرد المكيف.

تحدث مالك بن نبي أيضا عن الخصوصية التاريخية للمجتمعات، وعن عدم جدوى استعارة الحلول من البلاد المتحضرة لأن هذه الحلول لا تحدث التأثير نفسه الذي لها في أوطانها وكأنها تفقد فاعليتها في الطريق بمجرد انفصالها عن إطارها الاجتماعي." فجميع أنواع الحلول ذات الصيغة الاجتماعية التي نقتبسها عن بلاد أخرى ثبتت لها فيها صلاحيتها، تشبه الصيغة الكيميائية، هي صحيحة في هذه البلاد على وجه التأكيد، ولكنها تقتضي عند التطبيق عناصر مكملة لا تأتي معها، لأنه لا يمكن حصرها. ولا يمكن فصلها عن المحيط الاجتماعي في بلادها، أي لا يمكن فصلها عن روحها" (بن نبي، 2006، 103).

هذه الحلول والتي يسميها مالك بن نبي بالأفكار الميتة أو القاتلة تكون فعالة في محيطها الغربي باعتباره المحيط الثقافي الذي نشأت فيه والذي يتضمن مصلا واقيا من إفرازاتها وآثارها السلبية غير أنها حين تفصل عن جذورها الثقافية وتنقل إلى مجتمع آخر، فإن هذه الإفرازات الجانبية تؤدي مفعولها السلبي. فالخلل إذن لا يكمن في طبيعة أفكار الحضارة الغربية في حد ذاتها وإنما في طبيعة علاقتنا بها، وهذه الصلة لا تحددها غير وراثتنا الاجتماعية. فتخلف المجتمع الإسلامي وعجزه عن استعادة مجده الحضاري يرجع إلى ذلك التنكر المزدوج لقيمنا الثقافية الأصلية من جهة، وللقيم الإنسانية المعاصرة من جهة ثانية (لعميري، 2014/ 2015، 45).

إن المجتمع مضطر أن يستعير من غرائز الفرد طاقته الحيوية اللازمة لأداء نشاطه المشترك في التاريخ، " ولكن الطاقة الحيوية قد تهدم المجتمع ما لم يسبق تكييفها، أي مالم تكن خاضعة لنظام دقيق تمليه فكرة عليا، تعيد تنظيم هذه الطاقة وتعيد توجيهها فتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة في المقام الأول – حين تشترك في حفظ النوع- إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان، حين يسهم في النشاط المشترك لمجتمع ما" (بن نبي، 2006، 107).

خاتمـــــــــــة:

يعد كتاب "ميلاد مجتمع" من المؤلفات الهامة للمفكر مالك بن نبي، وقد شمل مجموعة من المفاهيم النظرية الأساسية في علم الاجتماع والتي ترجع إليها العناصر التاريخية الخاصة ب'ميلاد' مجتمع ما. ومن أهم المصطلحات التي تناولها المرجع والتي تناولناها بقراءتنا لهذا المؤلف نجد: المجتمع، العلاقات الاجتماعية، الثروة الاجتماعية والمرض الاجتماعي، كما قدمنا أيضا قراءة لفكرة التربية الاجتماعية لمالك بن نبي. وكغيره من الباحثين نجد المفكر قد تناول هذه المصطلحات بداية في صورة عامة ثم قام بإسقاطها على المجتمع الإسلامي بصورة خاصة. ونجد مالك بن نبي حريصا في توضيحاته على احترام الخصوصية التاريخية والثقافية للمجتمعات الإسلامية، حيث أنه يقدم توضيحاته في إطار بيئته الاجتماعية المتمثلة في المجتمع الإسلامي. كما حاول تقديم منظور فكري يتماشى وهذه البيئة ويحترم خصوصيتها بعيدا عن النظريات السوسيولوجية التي تحاكي المجتمعات الغربية.

وإذا ما حاولنا إسقاط الفكر البنابي - فيما يتعلق بميلاد المجتمعات ونسيج العلاقات بها وكذا الأمراض التي تصيبها- على مجتمعاتنا العربية المعاصرة عموما والمجتمع الجزائري المعاصر خصوصا، نجد بأنه يحاكي بشكل كبير واقع مجتمعاتنا اليوم. حيث نجدها تعاني من تمزق في النسيج الاجتماعي وتحلل للشبكات الاجتماعية ما جعل المجتمع تظهر عليه مظاهر التدهور والتشتت والوهن في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية...مما قد يسبب هلاكه. وهذا ما يستدعي من هذه المجتمعات البحث عن حلول لعلاج مشكلاتها من خلال تبني منظور فكري شامل ومتكامل الأبعاد ينبع من الخصوصية الثقافية والتاريخية لها، ويقوم على أساس منهج يستقي قواعده من علم التاريخ، علم الاجتماع وعلم النفس، كما يجب الأخذ في عين الاعتبار النزعة الفردية للإنسان من جهة، ونطاق الزمن الاجتماعي من جهة أخرى. وبذلك تكون 'الفكرة الدينية' لمالك بن نبي هي أساس التغيير الاجتماعي واستقامة حال المجتمعات الإسلامية.

قائمة المراجع:

1. بن عيسى، عمر (2007). مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي. دمشق: دار الفكر.
2. بن لحسن، بدران مسعود (2017). لماذا مالك بن نبي اليوم؟ مداخلة مقدمة في إطار الملتقى الدولي حول فكر مالك بن نبي بين مظاهر الجمود وآليات التفعيل. جامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي.
3. بن نبي، مالك (2000). الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دمشق: دار الفكر.
4. بن نبي، مالك (2000 أ). القضايا الكبرى. دمشق: دار الفكر.
5. بن نبي، مالك (2006). ميلاد مجتمع – شبكة العلاقات الاجتماعية- . عبد الصبور شاهين (مترجم). دمشق: دار الفكر.
6. بن نبي، مالك (2006 أ). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي . بسام بركة وأحمد شعبو (مترجمين). دمشق: دار الفكر.
7. سعود، الطاهر (2006). التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي. بيروت: دار الهادي.
8. العبدة، محمد (2006). مالك بن نبي – مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي- . دمشق: دار القلم.
9. العقبي، حسن موسى محمد (2005). مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة. رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة. الجامعة الإسلامية بغزة.
10. الكبار، عبد العزيز (2002/2001). قراءة معرفية (ابستيمولوجية) لمفهوم الثقافة عند مالك بن نبي. رسالة ماجستير في الأنثروبولوجيا. جامعة تلمسان.
11. لعميري، لويزة (2014/ 2015). نظرية الثقافة عند مالك بن نبي- دراسة تحليلية نقدية- رسالة ماجستير في النقد الثقافي. جامعة تيزي وزو.
12. ضيف الله، بشير (2005). فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي. الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.